ماجد سليمان

الكتاب مُهدى من المؤلف للقراء الكرام
11.6.2012

عَينٌ حَمِئَة..

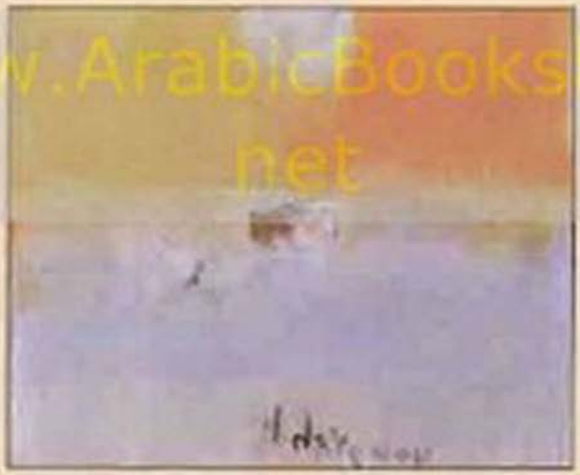

www.ArabicBookshop.net

روايـة

طوى

ماجد سليمان

عَينٌ حَمِئة..

روايـة

طوى
للنشر والاعلام

Twitter: @ketab_n

ماجد سليمان: عَينٌ حَمِئة..

Twitter: @ketab_n

Book: Ayn Hameea

الكتاب: عَينٌ حَمِئة ـ رواية

Author: Majed Sulaiman

المؤلف: ماجد سليمان

Cover Plate: Ali Rashid

لوحة الغلاف: علي رشيد

First Edition: 2011

الطبعة الأولى ٢٠١١

All rights reserved

حقوق الطبع محفوظة ©

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Email: tuwa@london.com

Tel: 009662108111 - 00966505481425

التوزيع: **منشورات الجمل**

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2011*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form otherwise, without or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or the prior written permission of the publisher.

Twitter: @ketab_n

الشخصيات والأحداث في هذه الرواية أغلبها من خَلق الخيال وبعض الأماكن هي من خَلق الخيال أيضاً، ولست أول روائيٍّ يُوجِدُ أماكن يملكها، ولن أكون الأخير، فأيّ تشابه بين شخصيات أو أحداث الرواية مع الواقع فهو تشابه غير مقصود.

❊ ❊ ❊

كتاباتي.. حَمَامَات الروح، وَدَوْحُ المغنّين، وحروفٌ من حنين، ازدحمت في بيداء القلب، لتزْفُرَ مع أنفاس الوَجَع والشوق إلى ما قد غَابَ خَلْفَ قُضبان الحياة المذابَةِ في ماء اِلزمان الفائت.

❊ ❊ ❊

عنوان الكاتب:

q44qqq@gmail.com

q44qq@hotmail.com

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

.. (إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرا)..

سورة الكهف، الآية ٦٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أَمَّا قبل:

أَجلسُ على مكتبي لأغرس قلبي بين سَبَّابتي وإبهامي، وأجرح به ظهر الورقة التي بشَّت من جموع الأفكار الواقفة عليها، لأكتب:

ما أمرَّ خُبز اليتامى، وما أفجع اليُتم المعصور في قدح الظُلم الأسَريّ والاجتماعي، وما أقسى غِصَّة الموجوع حين يُلقِمُهُ الأقارب أَكبَرَ حَجرٍ ينتقونه له.

هي كَقَشَّة الذنب العظيمة في مجتمعٍ يرى في نفسه أنه أفضل المجتمعات تَدَيُّناً ومحافظة.

هكذا عرفناك يا مجتمع الآراء المفروضة رُغماً عنَّا، حين تكبِّلُ أفواهنا عن المناقشة أحياناً، وينبحُ في قفانا كُلّ كبيرٍ لا يخاف الله فينا.

سألت نفسي على مَضض:

ـ لماذا يُقدِّم هذا المجتمع أبناءه لأفواه الهموم المصْفَرَّة؟ ولماذا يُراهن على أنه أتقى وأنقى المجتمعات، بينما تستمتع بالسعيِّ في جسده جرثومة المعصية؟!

Twitter: @ketab_n

أزفر بشدَّة في نفسي:

ـ تبّاً لك يا مجتمعاً يقاضينا بما ليس هو من فعلنا.

زفرتُ للمرة الثانية:

ـ عُذراً مجتمعي على كل الخير الذي يملأ جِرَارك، إلا أنَّك لم تُصادر أباريق وكؤوس العابثين في حياة أبنائك وبناتك.

نثرت رماد الموضوع على طاولتي، وأَخَذَت أصابعي تَلْعق ذاك الرماد بحزنٍ عميق، وتحادثه بأناملها المجهدة.. أتساءل.. وأتساءل.. وأرجم بحجر السؤال رأس الحيرة حَتَّى ينصدع، فكم فتىً وفتاة قُدِّموا جُثَّةً لأكفان الظلم والغصب.

نهضت من مكتبي مُتّجهاً إلى النافذة، دفعت بشبَّاكها نحو الشارع المطلَّة عليه، فإذا بهواء الرياض يُداهمني كجمعٍ من لصوص الليل.

Twitter: @ketab_n

(١)

صَوتٌ تهُدهِدُهُ الطفولةُ أَم تُبَلِّلهُ القُبَلْ
ورَغيفُ حَرفي سَاخنٌ وَجِياعُ عشقي تَقتتِلْ
شمسَ المآتم رَمِّمي قلباً تآكلَ صَمتهُ
يا مَنْ مررتِ بحرف موتي فوق سطرٍ من زجلْ
هاتي نشيد الوصل أو في عتمة البُعد امكثي
فحكايتي قد مُزِّقت من تحت أثواب الأملْ

ماجد سليمان

الرياض.. بَوَّابة حين تنفتح على مصراعيها، تَمُجُّ لنا مآتم ومظالم يَتَامَاهَا ومُعذَّبيها.

الرياض.. سيرةٌ طويلةٌ لمن ألهبتهم سياط الأقارب وأبناء العمومة.

هناك في أحد أحياء جنوبها يقع بيتنا المحشور في آخر زقاق الحي الضيّق الذي ترتع فيه الحشرات، وتَرِدُ إليه الزواحف، وتُلْقى على قارعته الخرداوات، ومزابل أهل الحي المجاور عَلاوة على تَكَبِّر سيَّارة البلدية التي من واجبها نقل النفايات عن زقاقنا المنسيّ.

Twitter: @ketab_n

بيتنا.. جُدرٌ تتألم كل صباحٍ من أحزان أُمّي المنكفئة على أماكن كثيرة من مساحته.

بيتنا.. صَمْتُ أُمّي المتآكل، ومظالم كثيرة لم يعد لبيتنا الحزين حلق صبرٍ على ابتلاعها.. فقد غَصَّ بها واسودَّت جدرانه المتصدِّعة من وبل بكائها كل يوم.

ثلاث سنوات من اقترانها بزوجها.. ثلاث سنوات أزهق خلالها آخر نفسٍ لكرامتها.

ثلاث سنوات.. ما ألذَّ الظلم على قلبه، فأوقاتنا يمضغها الأسى، وحاجاتنا لم نستطع إنقاذها من فَكِّ الحرمان.

آهٍ ما أقسى الحرمان.. لقد كَبُرَت أمّي في عامها (الواحد) عَشْر مَرَّات، بل أكثر من علقم الحياة معه.. تَغُصُّ كل يومٍ بوجعها وحُرقتها.. تجعّدت بشرتها الطريّة.. تَرَمَّدَ أملها.. تبعثر رجاؤها إلا من الله..

زوج أُمِّي لا شيء بين أضلاعه الجليلة غير الحقد والبغيضة المتراكمة فوق قلبه المتحجّر، لا شيء على لسانه الغليظ غير البذاءة واللعان، وترديد الشتائم لأُمّي، ولا شيء على كفَّيه الكبيرتين غير البطش والقسوة، فحصان صبرها معه لا يُشقُّ له غبار، هذا ما رأيت أنا وأختي، وهذا ما أفجعنا وأوجعنا في الوقت نفسه.

* * *

Twitter: @ketab_n

في ليلةٍ حَمَلت في رحمها الفجيعة، أغمد ظُلمه في خاصرة أُمِّي، أيقنت لحظتذاك أن الظلم بحرٌ هادرٌ سيكتسح تضاريس حياتي، وَقَفَ أمامي كالطود العظيم، له لحية كثَّة مختلطٌ سوادها ببياضها، وجبهةٌ عريضةٌ كثيرة التجاعيد ومنكبان عريضان مخيفان، وطولٌ بالكاد يقف أمامه خصومه وأضداده، أخذ يحملق نظره فيَّ فقذفت وجهي أرضاً، وبدأت فَكّي تراقص أسناني رعباً ورهبة، ثم أدار وجهه العريض إلى أختي فتكوَّرت على نفسها كقنفذٍ أَحسَّ بسبعٍ يترقَّبه، أخذ يحدِّق في وجهينا البريئين وكأن عينيه دبابيس تَدُّقُ سُمرة وجهينا، لحظتذاك تَمَسَّكت أُمّي بطرف ثوبه وأخذت تجرُّه لأسفل وهي تَسعُلُ بشدِّة وتقول:

أنا امرأة ضعيفة، لا تكن ظالماً.

ألقى عليها نظرته الحادَّة التي لو كانت شفرة سيفٍ هنديّ لقَسَمَت وجهها إلى قسمين، ثم أمسك بجديلتها الطويلة وشدّها إلى أعلى لترتفع أُمّي ككتلة لحمٍ رفعها لَحَّامٌ ماهر، ثم بَصَقَ في وجهها البدريّ وقال:

ما أنتِ إلا حذاء ألبسه ثم أرميه قبل أن يبلى.

كان كلامه سهام حقدٍ زُجّت في نحرها، فأطلقها من يده الضخمة كما يطلق الصياد أرنبة من يده، نَهَضت ممزَّقة الثياب مسلوبة الكرامة.. محطَّمة المشاعر.. مبعثرة الروح.. مدهونةً

Twitter: @ketab_n

بسواد قلب الرجل العربي المكابر، وَقَفَت على باب غرفتها المتصدِّعة، أخذت تمور في بحر دمعها وحزنها، التفتت إلينا ورأتنا محشورين في زاوية المنزل كقطّين مريضين، وأخذت تهذي بكلامٍ حاولت أن أسمعه ولكني لم أستطع ذلك، فقد كانت شفتها متورِّمةً بعض الشيء وإحدى ثناياها تزخر بدمها الطاهر.. لحظتذاك كان زوجها قد خرج تاركاً خلفه ضياع أُسرة قد أقرَّ وأقدم على وقوعه، فقد همَّش كل اعتباراتنا الأسرية.

ما زالت فرائصي تتراعد كما هو الحال عند أختي التي أجهشت ببكاءٍ مرير.

بعد أن ألقت أُمّي بجسدها المتهدّم على فراشها الرثِّ المملوء بالتراب والقشور اليابسة، اقتربنا منها فأخذتنا بين ذراعيها كجروين جائعين، لقد كان لها أنين لا ينقطع، وتأوُّهات مُسكرة وبكاءٌ مشحونٌ بِغَصَّةٍ بالغة.

أخذت أقرأ الجور الذي خَطَّه على وجهها.. جروحٌ غُمقت كأخاديد طويلة، ورضوضٌ وُزِّعت على وجنتيها. أخذت أتأمل كحل عينيها الذي شارك دمعها السبَّاق على خَدَّيها، فقلت في رعب:

أُمّي، لماذا فعل عَمّي كل هذا؟!

. . . . . .

Twitter: @ketab_n

إنه مخيف..

.....

ثم عادت لمجاهدة أوجاعها دون أن تنبس بكلمة.

ليست أُمّي سوى واحدة من اللاتي عُجنَّ تحت أقدام هؤلاء الجبابرة، الذين يرون أن المرأة ليست إلا وسيلة لإفراغ الشهوة، وخادمة تكنس بيوتهم وترتّبها.

وبعد أيام، وهناك بالضبط في محكمة الرياض ينفصل عنها شرعياً.

هناك في زقاق الحي الذي كنا مقبورين فيه..كانت أُمّي زغرودة على شفاه نساء الحي اللاتي لا يرغبنها أبداً، وفي نفس الوقت كانت هناك زغرودة أيضاً تَحُطُّ على فمها لخلاصها من كهوفه، ومن سياط حقده.

أخرج القاضي ورقة كُتِبَ عليها بحبرٍ أزرق مُتقطّع (مُطلَّقة) حَتَّى طلاقها كُتب بحبرٍ ضئيلٍ كجسدها. حَتَّى في طلاقها لم يحترموا ورقتها، فقد كتبوها بحبر الاستحقار والانتقاص. يا لفرحة أُمّي أصبحت مُطلَّقة، وعادت إلى أهلها بلا أغراض لأنها لم تكن تملك أبسط الأغراض.

«أُمُّك مُطلَّقة».. هكذا كان ينعتني الصِبْيَة الذين في سِنّي.

«يا ابن المطلَّقة».. هكذا كانوا يَتفوَّهون عَلَيَّ.

Twitter: @ketab_n

أصبحت ألوك حزني بعد ذهاب أُمّي إلى أهلها، لقد مدَّت لنا فنجال الرحيل باكراً ونحن في بحر سنواتنا العشر أو أكبر قليلاً.. تسابقت السنون، والحزن يلفحنا كل ليلة..أُمّي.. وجه الحقيقة النحيل.. قنديل الصبر الخافت، لقد اغتسلت من كل جروح حياتها مع زوجها وانسلخت تماماً من كل شيء يُذكّرها به، فقد نَزَعَت ثياب رائحته ولون أيامه، وَقَذَفَت بها في سَلَّة النسيان.

تدافعت الأيام بالأكتاف، وانهمرت الليالي كشلالات التلال، وها أنا اليوم أقف عازماً على مغادرة حارتنا العتيقة، موجِّهاً نفسي إلى حيث أُمّي وأخوالي، فكم قلت في نفسي مراراً:

أُمّي.. ليس لي أن أشدَّ من عزيمة النسيان وأنساكِ

التفتُّ إلى حارتنا بعد أن ابتعدت عنها بعض الشيء لأُوقف إحدى سَيّارات الأجرة، فصحت بأعلى صوتي الأجرب منتقماً:

بؤ بذنبك يا مجتمعاً يركل النبلاء ويفرش الورد للمنافقين.. يا مجتمعاً رَحَّبَ بالخزي وَوَسَّد الظالم ريش النعام.. يا مجتمعاً ألقى بابنة المعروف في مَعَرَّة الجحود.

أخذني سائق الأجرة في قلب الصحراء على الطريق المتّجهة إلى مبتغاي، فالنهار ما زال رمحاً يخترق السماء، ولا تزال الطريق تَتَوعّدني بالمكائد والمفاجآت السارَّة لها.. الصيف يجلد بسوطه الحار ظهر البيداء الطويلة، فقد فَلَّ ثلاثة أرباع حرارته حَتّى الآن والربع الباقي ليس بالبعيد.

Twitter: @ketab_n

لم يكن على جسدي الهشّ غير ثَوبٍ تملأه الرقع الملوَّنة التي فُقد نصفها وثُقب النصف الآخر، وهو ثوبٌ ليس بالمخبون كما يجب، وطوله لم يتعدى ربع ساقي النحيلة السمراء التي تَوَزَّعت عليها الجروح والكدمات المتفاوتة في الحجم والشكل، فما زالت الروح ممتلئة بلهاثي وظمأي القاصم لرؤية أُمّي.

قطع بي سائق الأجرة مسافة ليست بالسهلة تاركاً خلفه الرياض.. لتذوب في الغياب أو لتذهب في ركب البعاد.

دَنَت الشمس من غيابها قليلاً.. نسنست برودة المساء فأخذ قلبي يخفق ويرتدُّ هَلَعَاً من مجيء الظلام؛ إن النهار سيكون مقبوضاً عليه من رقبته بعد سويعات ليست بالبعيدة، بدأت أَحُثُّ السائق على الإسراع ليقطع أكثر من نصف المسافة على الأقل.. بعد ساعتين وَخَزَت شوكة الجوع معدتي الفارغة الملتصقة أسفل ضلوعي الهزيلة، وبدأت عروقي تستجيب لحرقة الظمأ فقلت في نفسي:

سأنحر هموم المسافة بلا زاد ولا ماء؟

ثقلت حركتي، وبدأت رأسي تدور واستسلمت لإغفاءة ثقيلة.

* * *

حين وَصلتُ إلى أخوالي أخبروني بوفاة أُمّي فجأة!!.. لم أكن مستعداً لتلَقّي الخبر.. ارتخت يداي وسقطتا في حضني.. بَلَعتُ

Twitter: @ketab_n

ريقي مَرَّتين متتاليتين.. أحسَّوا بعَبرةٍ تركل حنجرتي.. فبالكاد خَرَجَ السؤال من حلقي:

كيف ماتت؟!

ثم وضعت رأسي بين كفيّ، وأخذت نَفَساً سريعاً، وأعدت السؤال:

كيف ماتت؟!

لم يُجب أحد من الجالسين حولي.. مسحت وجهي بباطن يدي اليمنى.. فالخبر فَتَّت قلبي ودهس أحشائي.. أخذت ألمي، وحطام أملي، وبقايا يأسي معي، وانتقلت إلى غرفة مجاورة لهم لأريق ما تَبَقَّى لَديَّ من حزنٍ على انفراد، وبعد أن أفرغت كل ما بي من وجعٍ سليط، أضجعت جسدي على اليمين فانتهت عيناي إلى مرافئ النوم.

قُبيل العصر افترشت حزني داخل المقبرة، كان عواء الريح يتسلَّل إلى سمعي بهوادة.. لم أكن شارد البال إلا قليلا، بصري ينكفئ على النصائب والقبور التي دَثَّرها الزمان بالقِدم.. لم أكن صاحب دينٍ قويٍّ، فقد كانت ذنوبي تسرح بين أضلعي التي أحاول هذه اللحظة أن أُلوِّنها بتوبتي ونسياني لما مضى من آثامي التي ما بَرِحَت بيداء قلبي الطيب. كنت أتأمل القبور بلا استثناء.. الكبيرة والصغيرة، كان المنظر يخلخل روحي العاصية، هذه المقبرة

Twitter: @ketab_n

ابتلعت أجساد أناس كُثُر، مَن أعرفهم ومَن لا أعرفهم، فقد قَضَمَت دوابُّ الأرض ودودُها كلَّ شبرٍ من تلك الأجساد.

وقفت.. وأخذت أنفض بيديَّ السمراوين ثوبي المرقَّع، لم أشأ مغادرة المقبرة إلا مجاهداً نفسي على ضرورة المغادرة قبل غروب الشمس، فالشمس الآن بدأت تتوارى خلف الأرض.

اتجهت صوب باب المقبرة ومن حولي القبور تزفر، هذا ما كنت أحسُّ به، يصلني نَفَسُهَا الحار.. يلذع باطن أقدامي اليابسة.. لم أُبدِ انزعاجاً فقد أخذت أسير على رِسْلي فباب المقبرة ما زال بيني وبينه مسافة متوسّطة البُعد، نظري صار متخشِّباً إلى درفة الباب اليمنى، ما زالت الأنفاس الحارة التي تُصدرها تلك القبور تَتَحرَّش بباطن أقدامي، إنني في هذه اللحظة لا أُكذّب نفسي أبداً، فالزفير يتصاعد.. يتصاعد.. القبور التي أمثل سائراً من بينها، أُرَاقبها بحذر، فبصري بدأ يميع شيئاً فشيئاً، يداي اللتان أودعتهما في مخابئ ثوبي الخَلِق شَعَرتُ بالتَنَمّل يلتهمها رويداً.. رويداً، المسافة قَصُرَت تقريباً، فباب المقبرة أصبح وشيكاً من صولي، شفتاي تنبضان بظمأ أبيض مالح، الزفير بدأ يَتَقَلّصُ تدريجيّاً، قلبي هو العضو الوحيد الذي لم تتسارع نبضاته خوفاً.. لا أدري لماذا؟!.. لعلَّ أكوام الحزن المتكدَّسة بين عروقه أماتت الروع الذي يشطفه في كل مرّة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن يرتع في سمعي غير عواء الريح التي باغتت المقبرة لحظة طَعَنْتُ تراب المقبرة بركبتيّ الصلبتين، فباب المقبرة أخذت هذه الريح تَرُدُّهُ قليلاً.. قليلاً، قلبي الذي كان يفاخر بحزنه الذي كان مضادّاً للمخاوف التي تنبح في طريقه الضيِّق، أخذ يأكله الخفقان المتتابع.

دِرفة الباب اليمنى تقترب من الدرفة اليسرى لتُشَكِّلان انغلاق الباب، وأنا على وشك الوصول.. الزفير بدأ يتصاعد أكثر من ذي قبل، والتنمّل ارتداه جسدي المبريّ.. ليس إلا أقل من اللحظة حَتّى انغلقت الدرفتان، تلك الدرفتان الحديديتان المطليتان بدهانٍ رصاصي اللون تنتصف أعلاها فتحتان مربعتان نشب في إحداهما غراب لونه كلون قلوب الحاقدين، الجاحدين لكل فضلٍ والمتكبِّرين على كل فقير وضعيف.

الوقت ينزع رداء الضوء الضئيل الذي لحق بما تَبَقَّى من النهار الذي اختبأ تحت أثواب الغروب، فالآن لا نهار يبصرني مذعوراً داخل أسوار المقبرة، ما أفعل؟!.. أأجالس الأموات، أم أربت على قبورٍ آلمها الزفير؟!.

توارت النصائب الطينيّة خلف غشاء الظلام الذي خِيطَ على زوايا المكان، ومن بين أثواب الظلام أتاني صوت صائحٍ ارتطم دويُّه في فقرات ظهري.. التفتُّ له وهو يقول:

Twitter: @ketab_n

حَلَّ الظلام يا فتى.

لا أُصدِّقُ ما أسمع وأرى.. إنه حارس المقبرة، فتح الباب، وقال لي بلهجة غاضبة:

هيا أخرج.. الزيارة ليلاً لا تصلح لأحد.

ظللت ساكتاً وكأن لساني عُقِدَ في فمي، فلم أستطع أن ألفظ حرفاً ساكناً.. ثم ارتفع صوته مَرَّةً أخرى:

هل أُصِبْتَ بالصمم؟.. الدنيا ظلامٌ مريع.. هَيَّا أخرج.

أقبلت إليه، وحين وصلته صافحته بهدوء دون أن أُسَلِّم عليه فقال:

أَبَشرٌ أنت؟!.. ظننت أنك من الجن حين تجاهلتَ ندائي.

كان هذا الحارس ضخم الجثّة، له لحية ليست بالمشذَّبة، وشارب لم يحسن إليه بالمقص أبداً، له بطنٌ زائدة بعض الشيء، أزرار ثوبه مقلوعة إلا واحداً استقرَّ في مكانه أسفل الأزرار.. قال لي بفمٍ ممتلئ بجمل العتاب:

أأصمٌ أنت؟!

.....

أهناك عاقل يبقى في المقبرة إلى حلول الظلام؟!

.....

Twitter: @ketab_n

أخافه صمتي بعض الشيء. ضغط بكفِّه الغليظة على كفِّي وقال:

اذهب إلى أهلك واحذر هذه العادة.

هززت رأسي طائعاً، فحدَّق قليلاً في إجابتي الصامتة وأطلق يدي من يده. نظرت في كفِّي المتعرِّقة من أثر المصافحة الطويلة.. ثم عدت أدراجي.

Twitter: @ketab_n

(٢)

مُوري ببحر الدمع يا مَن لا يُضَاجعُها الكَرَى
ثم انكأي جُرحي على معزوفةٍ لم تكتملْ
وتناثري من بين أخشاب التوابيت التي
جَمَعت بظلمتها تباريح الجنائز في عَجَلْ
صَوتي عُواءٌ حَائرٌ يمتدُّ في بيدِ البِلى
فأنا وريثٌ لليباسِ بكل يأسٍ أغتسلْ

ماجد سليمان

«لا دفء بعد اليوم»..

بهذه العبارة كنت أجلد نفسي دائماً، لا مَفَرَّ من القَدَر، فأُمّي لم يهبها الموت لحظةً واحدةً للوداع، أُحسُّ أنني مُقتلعٌ من الأرض ومُعلَّقٌ على هاوية الحياة.. إنها لعنة الرحيل.. كأنني جالسٌ على ضفَّة الموت، فلم أعد أرى في سمائي نطفة نجم أبدا.. لا دفء الأمومة، ولا دفء المحبوبة، تلاشى كلاهما عن طريقي، ولم يتركا لي سراباً أتصبَّرُ به على الأقل.

Twitter: @ketab_n

«نورانيّة».. آهٍ من النار التي بين أصابعها، إنها الرغبة الآثمة.. يا كم غيَّرت خرائط روحي بحبِّها.

وقتٌ طويلٌ أراقب العمر الذي يتناثر في جسدها، إنها كتاب الهوى وصفحات الغرام النديّة. لم تكن ككل النساء، لقد أيتمتني هي أيضاً، أيتمتني بفراقها، بعد أن تركت سهمها المشتعل ماكثاً بين ضلعيّ.. لم أنتظر منها صدوداً بقدر ما اشتعلت لموعد لقائها المائيّ.

عرفتها بعد وفاة أُمّي بسبع سنوات تقريباً، عرفتها والعشق يخرق جدران العزلة، عرفتها وأنا مُحمَّلٌ بأتعاسي ورغباتي المحرومة.. وفارقتها وأنا لم أُنْزِلْ عن ظهر صبري صندوقاً واحداً من صناديق عذابي وحرماني.

أبكي كبكاء الأرض الظمأى، لأن بي ذاتاً مُعذَّبة.

«نورانيّة».. شمسٌ حاولت أن أفسح لها مكاناً في الروح لكنها أبت، فأبدلتها بالروح فأبت أيضاً.

أذكرها حين كانت تُقلِّبُ قلبي بين كَفَّيها الطريين، وكنت أُراقب هذا القلب بحذر، تُمرِّرهُ بين أصابعها الحليبيّة ككرة مَطَّاطيّة.. عيناي تراقبانه بحذرٍ أكثر.. تغرس أظفارها الفارهة في عروقه برفق ثم تنزعها خلسة.. فلم يخرج الدم بل كانت أوتار الحنين تدندن من الجروح التي حَفَرَتها.

Twitter: @ketab_n

فجسدها المتباهي بحلواه والذي لم يتطهَّر من آثامه بعد. . لم يمهلني لحظة فقيرة أستعيد فيها قليلاً من كبريائي. . لم أنسَ أنها كانت تُيمِّمُ القلب بأحاديثها الخضراء في يوم يابسٍ من عمري الرماديّ، وأذكر تماماً حينما قلت لها وأنا أسحب يدي السمراء من دفء يديها الحانيتين:

ـ مشكلتي أنني أدفع كبريائي ثمناً للمحبَّة.

ولأنني لست من الذين يعشقون السباحة في يَمّ المحرمات، ولا من الدَجَّالين الذين يُطرِّزُون الأساطير والأكاذيب على رمل حكاياتهم المعَفَّرة في طين الوجل والريبة، ولأنني لا أملك قنطار صفة من كل هذا. . لم أَرُق لها.

لم تُكلّف نفسها أبداً فتح نوافذ الرحابة لي، لم تحاول البتَّة. . داهمتها بمشاعري الثائرة، حاولت إقناعها بأنني صلب الغرام، فأتاني رَدُّها أقسى من الصخر الصلد، تأكَّدت من هذا عندما أغلقت باب المنزل بقوَّة بعد أن ألحقتني بكلمات لا تَقلُّ بذاءة عن سابقاتها:

ـ لا يدفعك إليَّ إلا شبقك المتوزِّعُ في أنحاء نحولك.

لم يكن بإمكاني أن أفيق من كلامها المسكر. . لم اكترث كثيراً لما قالته كما كنت سابقاً، وبخطىً متثائبة حملتني أقدامي إلى دكَّةٍ لأحد أصدقائي وأسلمت أجفاني لنعاسٍ ثقيل.

Twitter: @ketab_n

حَلِمتُ في تلك الدقائق أنني على أرضٍ تتقيأ الظَلمةَ والحساد، أرض وقف على إحدى تلالها غراب النفاق، وبَقَرَ رأس التَلّ ففاضت أعين المنافقين منه.

فتحت عَينَيّ على صوت انفتاح عُبوَّة المشروب.. حَسَّ صديقي أنني صحوت فناولني على الفور قارورة المشروب قائلاً:

ـ اسكب لنفسك ولي في الأقداح الصغيرة الموضوعة على الرفّ الذي يليك.

اعتدلت في جلستي.. ساويت غترتي.. أخرجت قدحين من بين الأقداح، سحبت القارورة من يده اليمنى، ثم تَأَمَّلت القَدَح قبل أن أسكب المشروب فيه، كان قدحاً بُنِّي اللون تكثر في باطنه علامات القِدَمِ وشقوق من الدرجة الثالثة تنتشر على أطرافه وجوانبه، أرقت بعض المشروب في القدح ثم ناولته إياه قائلاً:

ـ خُذ.

أشعل سيجارته وراح يمتصها بشراهة حَتّى أضاء قبس جمرتها من بين الوسطى والسَبَّابة، ثم مسح بيده اليسرى على جبينه وأخذ القدح قائلاً:

ـ شكراً.

كانت نورانيّة تعبث بمشاعري عبث طفلٍ بلعبته، ففي إحدى لقاءاتي بها، كانت تقاسيم وجهي تُبجّلُ وجهها المطلّ من خلف

Twitter: @ketab_n

طرحتها الشَفَّافة، وكفيّ الغليظتين تعبثان في خواتمها الساكنة في أصابعها اليسرى.. كانت بوادر التصديق تسطو على وجهي النحيل وهي تعترف لي بأن حُبِّي بُذرَ في تُراب قلبها، ونبت في أضلاعها، وأنَّ لا ثاني لي في حياتها.. وبعد دقائق هربت من رصيد العمر المتبَقِّي.. رنَّ هاتفها فأجابت المتصل:

أهلا حبيبي.

وَقفتُ كالمفجوع، تَمَنّيت لو أني سُوِّيتُ بالثرى ولم أقف هذا الموقف.. أخذت أنظر إليها بحقد وحبٍّ معاً.. رَفَعت رأسها فلاح لي نورها من خلف النقاب فتهدَّل غضبي وناخ عُنفي، حَتّى جاء صوتها رقراقاً:

لماذا وقفت؟

جَفَّ صوتي ولم أُجب.

نهَضَتْ فتراءت مَلاكاً يقف أمامي.. نهدان كاعبان، وعينان كأنهما لؤلؤتان، وقدٌّ كأنه رمحٌ طعن السماء حين وقفت.. تخشَّبت عيناي في هذا الملاك الماثل أمامي.

كان صمتها محزناً رغم بشاعة ما شاهدت وسمعت.. أدارت لي ظهرها وراح كعبها يراود الرخام عن نفسه وهي رائحة إلى سبيلها المجهول.

تَعَكّزتُ على الكرسي، وأحنيت رأسي ألماً وإحساساً بالضعف

Twitter: @ketab_n

والاحتقار، ثم أدرت وجهي لأراها ظبياً قد فَرَّ من دوحتي إلى الخلاء الفسيح.

على أن غيابها فَتَّت أملي إلا أن طيفها ما زال يُضيء.

الآن.. أشتهي أن أغنّي يباسي للغمام، أتوق لأن أعزف لحني الأخضر على أسماع الهاجعين، بي رغبة جامحة لأن أفرد مماتي قبل الممات، بي جنونٌ أسمرُ كَلَوني أريد أن أُعلِّقه على جمجمة تاريخي.. أسْندتُ جذعي النحيل على سارية أسمنتيّة، فمضيت أسحب من سَلَّة روحي أعواد الاشتياق وأكسرها عوداً عوداً.

أطبقت شفتيّ على طعم الحزن، وراح لساني يذوق ما تبقَّى منه فلا بدَّ لي من أن أبلع حَظِّي بكُلِّ رضى.

Twitter: @ketab_n